

6-14-2021

The dialectic philosophy of Right and The Good Approaching the Problem from the Perspective of the Quranic Discourse في فلسفة جدلية الحق والخير مقارنة الإشكال من منظور الخطاب القرآني

Zaid Khaled Al-Zureikat
Jordan University, dr.zaidzuriqat@gmail.com

Ali Radi Abu Zureik
-

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/jois>

 Part of the [Islamic Studies Commons](#)

Recommended Citation

Al-Zureikat, Zaid Khaled and Abu Zureik, Ali Radi (2021) "The dialectic philosophy of Right and The Good Approaching the Problem from the Perspective of the Quranic Discourse في فلسفة جدلية الحق والخير مقارنة الإشكال من منظور الخطاب القرآني," *Jordan Journal of Islamic Studies*: Vol. 17: Iss. 2, Article 14. Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/jois/vol17/iss2/14>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Jordan Journal of Islamic Studies by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

في فلسفة جدلية الحق والخير مقارنة الإشكال من منظور الخطاب القرآني

علي راضي أبو زريق**

د. زيد خالد الزريقات*

تاريخ قبول البحث: ٢٠٢٠/١٠/٤ م

تاريخ وصول البحث: ٢٠٢٠/١/٥ م

ملخص

يتغيا هذا البحث استقراء منهج القرآن الكريم في الخطاب بعامة، ومحاولة الإجابة عن سؤال الغرض الأبعد للخطاب القرآني، وفيما إذا كان خطاباً يُمثل الحق للحق أم الحق من أجل خير المخاطبين ونفعهم. وينطلق البحث من أصول عقيدة الأمة، وهي أن كل ما يصدر عن الله من قول هو حق وخير. لقد اجتهد الباحثان في تحليل الرؤيتين السابقتين، والإجابة عن سؤال أولوية الخطاب القرآني وهل الأولوية هي للنظرية التي تغلب رؤية الحق للحق أم الحق للخير؟ وخلص البحث إلى أن الخطاب القرآني وإن كان منطلقاً من ظروف الأمة المُخاطبة كما كانت يوم أرسل الله لها رسوله محمداً ﷺ، فإنه يواصل التقدم معها ما دامت تنفذ تعليمات الله وتتمو مع كل توجيه جديد، وفي كل مرة يحررها من أي انحرافات عقديّة وسلوكية، ويُوجهها إلى بديل أفضل وأسمى؛ إذ إن الخطاب القرآني جاء مراعيًا لظروف الأمة المُخاطبة في بعدها التاريخي الحي والمستمر على مدى الأزمنة؛ لأن المشكلات التي عالجها الخطاب القرآني هي مشكلات الإنسان أينما كان وحيثما وجد. وانتهى البحث إلى أن الحق والخير متلازمان وأن مقاصد الحق هي الخير، وأن الله تعالى كان ينزل من الكتاب بالحق ما ينفع المخاطبين ولخيرهم.

الكلمات الدالة: جدلية، الحق، الخير، الخطاب القرآني.

The dialectic philosophy of Right and The Good Approaching the Problem from the Perspective of the Quranic Discourse

Abstract

This research aims to extrapolate the curriculum of the holy Quran in the discourse in general, and knowing the farthest goal of the Quranic discourse in particular, is it the abstract right or right for the good of the suitors and their benefit? The Quranic discourse emulates the circumstance, of the nation addressed, in it's historical and in its continuous dimension over time. The research begins from the doctrine of the nation that all that is issued by God is Right. To find out the answer we have to analyze the words of God to arrive at a conclusion stating which of both theories is correct: Is it the theory of right for the right or the right for the good of the addressed people? In the second case, the words of God must start according to the conditions of the nation as they were the day the prophet was sent. It would then continue to progress with them as long

* أستاذ مساعد، الجامعة الأردنية.

** باحث.

as they follow the instructions and grow with every new directive. And every time God liberates them from inappropriate behavior and directs them to a better and loftier alternative. God may also cancel the rule after achieving its original benefit, and replace it with a different rule that better suits the new phase that has arrived. God teaches them what they may need in the new circumstances which they never practiced before because the problems addressed by the Quranic discourse are human problems wherever and wherever they exist. The research concluded that right and good go hand in hand, That the purposes of right is good, and that the Almighty sent the Book with right, which benefits the addressed people, and for their good.

Key Words: dialectic, Right, The Good, Quranic discourse.

المقدمة.

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا محمد الكريم. ثمة نظريتان تتضادان في مفهوم الحق، تقول إحداهما الحق للحق وترى ثانيتهما أن الحق للخير. وفي الأولى يلزم قول كل الحق حتى لو كان ضاراً أو لا لزوم له. وهي الحالة المسيطرة في الاتجاه المثالي والحدسي والعقلاني. وثمة إضافة في هذه الجهة، وهي قول القائل: "وقول الحق مطلوب لذاته ولا يتحقق إلا إذا قيل الحق في الرضا والغضب والحب والكره، فيتجنب الباطل واللغو والظن، والحق لا يقبل التجزئة أو أن يختار من الحقيقة ما يلائم وضعه ويبرر تصرفه، أو يقول الحق إذا كان له ويجده إذا كان عليه، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور ٤٨، ٤٩] (١).

وفي النظرية الثانية يُقال ما يحتاج السامع إليه وينتفع به، ولا مانع من الإيهام بل الكذب لولي الأمر في الحدود النافعة للسامع دون الإضرار بأحد. ونقتبس من جمهورية أفلاطون منسوبة إلى سقراط: "فإن جاز الكذب لأحد فللحكم فقط في مخادعة الأعداء، أو في إقناع الأهالي بما هو لخير الدولة. ولا يُباح لأحد الاشتراك معهم في هذا الامتياز، بل نحسب كذب الناس في ما يضير الدولة مساوياً، على أقل تقدير، كذب العليل على طبيبه في أمر صحته، والتلميذ على مدرسه، وكذب الملاح على ربانه في ما يتعلق بحال السفينة وبحارتها، ووصف حاله أو وصف حال رفقائه" (٢).

تحليل الخطاب القرآني ممارسة معرفية أصيلة في الثقافة العربية الإسلامية، لقد اشتغل علماء القرآن بدراسة مفصلة ومدققة لمظاهر الخطاب القرآني وأساليبه، ثم وضعوها بعد ذلك في أبواب مستقلة حتى ينتفع بها المفسرون والدارسون وأهل العلم بالقرآن، فشكلت فضاء معرفياً التقت فيه البلاغة بالنحو واللغة والصرف والأخبار وأسباب النزول، والفنون القولية المعروفة مثل: الشعر والنثر والرسالة، فعكست بذلك صورة للذهنية العربية العالمة في انشغالها بالقرآن الكريم، والأدوات المتوافرة لها، ونظام التأويل، وأتساق التحليل (٣). فالنص القرآني بكل ما يحمله من تراث تفسيري واقع متعين في حياتنا اليومية وفي ثقافتنا المعاصرة، يشكل حركة هذا الواقع. وما نلزم به أنفسنا أننا مجتمعات النص "النص القرآني"، ولا نرى أي حركة لمجتمعنا بدونها. ولا يمكن أن نقيم أي حضارة أو ثقافة متماسكة بمعزل عن العلاقة التي أوضحها النص والمتمثلة في كلمة

الإسلام حيث الله في علاقة وطيدة بالإنسان، ونكون قد جازفنا بمستقبلنا لو حالونا أن نحدث تمفصلاً بينهما^(٣). وهكذا فإننا بأمس الحاجة إلى الاشتغال بصورة فاعلة، لأجل سبر أغوار النص المقدس، وفهم أسرار الخطاب القرآني^(٤).

وبناء على ما تقدم، فإنه يوجد دعاوي وأقويل لا تتوافق مع منهج التعامل مع الخطاب القرآني، وأنها تتنافى مع واقعية هذا الخطاب المعجز، مثل ذلك نسمع من يستنتج من الخطاب القرآني أن الحق للحق. ومثل هذه الاعتقادات التي يستنتجونها من القرآن جاءت بناء على قراءة أجزاء من آيات القرآن الكريم، وفي هذا إهمال للإطار النظري المرجعي المؤسس للخطاب القرآني القاصد، وللمنظور السليم للوجود الرسالي للإنسان فوق الأرض. ومن جهة أخرى القرآن كلام الله، وكلام الله هو الحق دون شك، فالله هو مصدر الحق حسب عقيدتنا نحن المسلمون، ولكن الحق في القرآن لا يتنزل دائماً لذاته ودون ضوابط من قيم أخرى، وإزاء هذه الأحوال يأتي هذا البحث لتحليل الخطاب الرباني القرآني واستقراء أنساقه الخفية في موضوع جدلية الحق والخير، أي تأويل المعنى إنطلاقاً من أدوات وضوابط ومسارات، دون تفریط في الهوية والمرجعيات المشتركة، ومن ثم، يطمح الباحثان إلى فتح آفاق بحثية لتأصيل أنساق تحليل الخطاب القرآني إنطلاقاً من المدونات التراثية في التفسير والبلاغة والفقه والفلسفة، ويؤسس الباحثان رؤيتهما على المنهجية القرآنية بوصفها مرجعية محيطة بالأبعاد المشار إليها.

مشكلة البحث.

تتمثل مشكلة البحث في الأمور الآتية:

- ١- ما المراد بالخطاب بعامة؟
- ٢- ما الغرض من الخطاب القرآني؟
- ٣- هل يمثل الخطاب القرآني الحق للحق؟
- ٤- هل يمثل الخطاب القرآني الحق لخير المخاطبين؟
- ٥- ما العلاقة بين الحق والخير في الخطاب القرآني؟

أهداف البحث.

تهدف الدراسة إلى تحقيق الآتي:

- ١- الوقوف على المراد بالخطاب القرآني
- ٢- الوقوف على جدلية الحق والخير في الخطاب القرآني ومقاصدهما والصلة بينهما.

منهج البحث.

اتباع الباحثان في إعداد هذه الدراسة المناهج الآتية:

- ١- المنهج الاستقرائي من خلال تتبع مواضع الآيات الكريمة في بعض من التفاسير والمؤلفات ذات الصلة.
- ٢- المنهج التحليلي من خلال تحليل أهداف خطاب آيات القرآن ذات الصلة بالموضوع.

في فلسفة جدلية الحق والخير

- ٣- المنهج الوصفي المتمثل في عرض الآراء.
- ٤- المنهج النقدي من خلال إبداء الرأي ومناقشته الآراء.

حدود الدراسة.

مقصد البحث هو دراسة جدلية الحق والخير ومقارنته الأشكال من منظور الخطاب القرآن.

الدراسات السابقة.

لم نجد بحدود اطلعنا أن أحداً من المؤلفين قد تطرق لهذا الموضوع بشكل محدد، وإنما هناك دراسات حول الحق وحول الخير في القرآن.

خطة الدراسة.

- جاءت هذه الدراسة من مقدمة وخمسة مباحث فخاتمة. وبيانها.
- المبحث الأول: تأصيل معنى الحق.
 - المبحث الثاني: تأصيل معنى الخير.
 - المبحث الثالث: تأصيل معنى الخطاب.
 - المبحث الرابع: غاية الخطاب القرآني.
 - المبحث الخامس: تلازم الحق والخير، ومقاربة الإشكال من منظور قرآني.
 - أما الخاتمة، فقد ذكر فيها أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها الدراسة.

المبحث الأول:

تأصيل معنى الحق.

أولاً: الحق في اللغة.

الحق لفظ جامع في القرآن الكريم؛ حيث استعمل هذا المصطلح في القرآن الكريم بمختلف اشتقاقاته وصيغته مائتين وتسعين مرة^(٥).

ويُعدُّ مفهوم الحق من المفاهيم الأساسية التي تداولها الفلاسفة من القديم؛ لارتباط إشكالية الحق بالهموم الإنسانية، ولمواكبتها للحياة السياسية والأخلاقية، ومن خلال تتبع مادة حق في مفرداتها ومعانيها اللغوية الإتيولوجية Etymology التي تُعنى بأصل الكلمات وتاريخها نجد مدلوله اللغوي يكاد يتمحور في المعاني الآتية:

والحقّ بمعنى الوجوب: نجد صاحب العين يقول: "حقّ الشيء يحقّ حقاً أي: وجب وجوباً. تقول: يحق عليك أن تفعل كذا وأنت حقيق أن تفعله"^(٦).

وكذلك جاء معنى الحق في مقاييس اللغة للرازي (ابن فارس): الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته.

فالحق نقيض الباطل، ثم يرجع كل فرع إليه بجودة الاستخراج وحسن التلخيص^(٧).
والحق بمعنى الثبوت: جاء في لسان العرب لابن منظور: "وَحَقَّ الأَمْرُ: صار وثبت"^(٨).
والحق بمعنى اليقين: جاء في لسان العرب: "وَحَقَّ الأَمْرُ يَحَقُّه حَقًّا، وأَحَقَّهُ" كان منه على يقين، نقول: حققت الأمر إذا كنت على يقين منه"^(٩).
والحق بمعنى الأحكام والصحة: جاء في لسان العرب: "أَحَقَّقت الأَمْرَ اهْتِمَامًا إذا أَحَكَمْتَهُ وصَحَّحْتَهُ"^(١٠).
وفي لسان العرب لابن منظور: "الحق نقيض الباطل وجمعه حقوق وحقاق، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، والحق أمرُ النبي ﷺ، وما أتى به القرآن"^(١١).
والحق بمعنى المطابقة: يقول الراغب الأصفهاني: "أصل الحق المطابقة والموافقة"^(١٢).

ثانياً: الحق في القرآن الكريم.

أما المعاني الاصطلاحية للفظ "الحق" في القرآن الكريم فقد استعمل بمعنى: الله جل جلاله، وبمعنى: الإسلام، وبمعنى: القرآن، وبمعنى: التوحيد، وبمعنى: العدل، وبمعنى: الصدق، وبمعنى: الوجوب، وبمعنى: ما يقابل الباطل، وبمعنى: المال، وبمعنى: النصيب، وبمعنى: الحاجة، وبمعنى: أولى، كما أطلق لفظ الحق على محمد ﷺ^(١٣).
بناءً على ما سبق، فإن حق الشيء في اللغة إذا أحكم وصح وثبت وطابق الواقع. وفي ما يأتي آيات من القرآن الكريم وردت بها كلمة الحق تنتبع كلاً منها بتفسير لها للفيروزآبادي والجلالين ثم بتفسير سيد قطب.

(١) وفي بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي: أصل الحق المطابقة والموافقة، كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على الاستقامة. والحق يقال على أربعة أوجه.

- يقال لموجد الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة. ولذلك قيل في الله تعالى: هو الحق.
- يقال للموجد بحسب ما تقتضيه الحكمة. ولذلك يقال: فعل الله تعالى كله حق؛ نحو قولنا: الموت حق، والبعث حق: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ إلى قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥].
- الاعتقاد في الشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه؛ كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق.
- للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، ويقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، كقولنا: فعلك حق، وقولك حق. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَ هُمُ﴾ [المؤمنين: ٧١] يصح أن يكون المراد به الله تعالى، ويصح أن (يراد) به الحكم الذي هو بحسب مقتضى الحكمة. ويقال: أحقت كذا أي: أثبتته حقاً، أو حكمت بكونه حقاً. وقوله تعالى: ﴿يُحِقُّ الْحَقُّ﴾ [الأنفال: ٨] فإحقاق الحق على ضربين: أحدهما بإظهار الأدلة والآيات، كما قال: ﴿وَأُولَئِكَمُ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩١] أي: حجة قوية. والثاني بإكمال الشريعة وبثبوتها، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَتِّمٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٤]، وقوله: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١] إشارة إلى القيامة؛ لأنه يحق فيه الجزاء. ويستعمل استعمال الواجب اللازم والجائز نحو: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ١٠٨] قيل معناه "جدير"، أي: جدير بالحق^(١٤).

٢) تفسير الجلالين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] (بما وراءه وهو الحق أي: القرآن).
 ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، القصص الحق أي: الخبر الذي لا شك فيه.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ أَلْحَمْتُمُ إِلَّا اللَّهُ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] ويقصص الحق بمعنى: يقضي القضاء الحق.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. " (أنزل إليك من ربك)؛ أي: القرآن". فتكون كلمة الحق هنا بمعنى القرآن الذي هو من عند الله.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وبالحق أنزلناه أي: القرآن، وبالحق المشتمل عليه نزل، كما أنزل لم يعتره تبدل. فنزل ليقر الحق في الأرض ويثبتته، فالحق مادته والحق غايته، الحق الأصل الثابت في ناموس الوجود^(١٥). واخترنا هذه الآيات لوضوح فكرة الحق بها فهو كلام الله. إلا آية الأنعام (٥٧) فهي بمعنى القضاء. ولكلمة الحق في القرآن معان أخرى، لكن هذا ما يلزم لأغراض هذا البحث.

٣) تفسير سيد قطب:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. الحق هو الغاية التي يريد القرآن تقريرها، وليس مجرد الانتصار في الجدل، ولا الغلب في المحاجة، إنما هو الحق القوي بنفسه، الواضح الذي لا يتلبس به الباطل^(١٦).

﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْتَرَهُمَ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]. الحق لا يمكن أن يدور مع الهوى، بالحق تقوم السماوات والأرض، وبالحق يستقيم الناموس، وتجري السنن في هذا الكون وما فيه ومن فيه.

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]. الحق واحد ثابت، والأهواء متقلبة وبالحق الواحد يُدبّر الكون كله؛ فلا يجرف ناموسه لهوى عارض؛ ولا تتخلف سنة لرغبة طارئة؛ ولو خضع الكون للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسد القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى، والكره والبغض، والرغبة والرغبة، والنشاط والخمول، وسائر الانفعالات والتأثيرات. هذا الكون المادي قيم بالحق في اتجاهه وغايته وكلاهما حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد على قاعدة ثابتة، ومنهج مرسوم، لا يختلف ولا يتأرجح ولا يحدد^(١٧).

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. إعلان عن القيم الحقيقية، قل الحق ولا تتلق أحدًا، وبعد ذلك فليؤمن من شاء وليكفر من شاء^(١٨).

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]. ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيَّكُمْ بِوَكِيلٍ * لَكُلِّ نَبِيًّا مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦، ٦٧]. لا بد من الثقة بالحق، ولا وزن لمن ينكر الحق، أنها الطمأنينة الواثقة بالحق، الواثقة بنهاية الباطل مهما تَجَجَّج، الواثقة بأن كل نبي إلى مستقر، وكل حاضر إلى مصير^(١٩).

ثالثاً: الحق في الفلسفتين الشرقية والغربية:

في الإطار الفلسفي تقلب مفهوم الحق بين معاني عدّة، فاتخذ معاني "أنطولوجية" (طبيعة الوجود) يُراد بها كل وجود مطلق، ومعاني "إبستمولوجية" (معرفية) يُراد بها الحقيقة المطلقة، وكذلك معاني أكسيولوجية (القيم والمثل العليا) باعتباره قيمة القيم^(٢٠).

يقول الفيلسوف الألماني أمانويل كانط في كتابه "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق": "إن كل ما ينبغي أن يكون خيراً من الناحية الأخلاقية لا يكفي فيه أن يكون مطابقاً للقانون الخُلقي، بل لا بد له أن يحدث من أجله"، ومن ثمّ فلا بد للقانون الخُلقي أن يتوافق مع الخير وأن يكون من أجل الخير؛ ولذا أسس كانط مفهومه لأخلاق الواجب على أساس أنها تعبير عما يجب أن تكون عليه الأمور بغض النظر عن أي عامل أو سبب. وعليه، فعند تصدير حكم أخلاقي مثل "لا تكذب" فإن هذا الحكم مطلق لا بد من تطبيقه لأنه يتطابق مع الخيرية بغض النظر عن عواقب قول الصدق. وهنا نستطيع أن نستشف من هذا الموقف أن فكرة الحق لا بد أن تتفق مع فكرة القانون المطلق الذي لا يمكن كسره؛ إذ يقول كانط: "تصرف فقط التصرف الذي يمكن له أن يكون قانوناً عاماً"^(٢١).

وهنا يتضح أن مفهوم كانط للحق إنما ينبع مع الواجب أولاً ومن إمكانية أن يكون هذا الحق ممكن التطبيق ثانياً. أما جورج فلهام هيغل فينطلق من القول بأن الحق مفهوم عقلائي مرافق لمفهوم "الروح المطلق"، ولذلك فتأسس الحق لا يكون من خلال نفسه ولكن من خلال الإقرار بأن العالم هو تمظهر الروح المطلق، وبما أن هذا العالم هو الظاهر الطبيعي للمطلق فإنه بالضرورة يلتزم بقوانين، والحق أحد قوانين الوجود هذه، فكما يقول في بداية كتابه عن فلسفة الحق: "نحن هنا نقدمها على أنها شيء معطى، ونفترض سلفاً أنه قد تم استنباطها"^(٢٢)، ولكنه يؤكد في الوقت عينه أن فكرة الحق فكرة شمولية لا بد أن نأخذها كفكرة وتطبيق عملي للفكرة، فيقول: "فكرة الحق، أعني الفكرة الشاملة عن الحق مع التحقق العيني لهذه الفكرة في آن معاً". وعليه، وضمن منظوره لحركة التاريخ من حيث إنها حركة الأفكار للعقل الذاتي في سعيه للعودة إلى العقل المطلق، فإن الجزء العملي عن فكرة الحق يتحول من الفكرة الشاملة المفترضة إلى الفكرة المتحققة بتحققها العياني؛ أي الحق الوضعي، وهو هنا يتحول ضمن مفهوم العقد الاجتماعي إلى قانون؛ أي أن القانون هنا عند هيغل قانون متحدد بالعقد الاجتماعي وهو قانون وضعي بالضرورة، قانون له تاريخ وله تطور وممكن أن يتغير من ثمّ لكونه يعتمد على الاتفاق المُقرّ بالعقد الاجتماعي، وعليه فهو يقول: "الحق وضعي بصفة عامة حين يتخذ الشكل المشروع في دولة معينة، وهذه السلطة المشروعة هي المبدأ المرشد لمعرفة الحق في صورته الوضعية، أعني القانون الوضعي"^(٢٣). هذا التصور للفصل بين الحق بصورته الشاملة والحق الوضعي ينسجم تماماً مع موقف هيغل، ويتوافق أيضاً مع النقاشات التي صبغت مرحلة الأنوار حول مفهوم الحق بشكل عام.

فالنقاشات في عصر الأنوار تمحورت حول ما إذا كانت الحقوق طبيعية أم معطاة من الله؛ أي أن النقاش كان يدور حول التحقق ما بين الحق الإلهي والحق الطبيعي. وينطلق مفهوم الحق الإلهي من حقوق ثابتة مرتبطة بجملة من "القوانين" الربانية التي لا بد أن تحكم كل قانون متحقق، بينما يأخذ أصحاب الحق الطبيعي بالفكرة التي تقول بأن مفهوم الحق يستنبط من الوجود الطبيعي للإنسان بغض النظر عن الاختلاف عندهم ما بين الحالة الطبيعية للإنسان؛ إذ يأخذ لفيف منهم أن هذه الحالة الطبيعية هي حالة السلم الاجتماعي أو حالة الهمجية والحرب^(٢٤).

وهنا يتحول مفهوم الحق من مجرد حقوق الواجب المرتبطة بالأخلاق وبما يتوجب على الإنسان فعله إلى الحق بمفهومه الأوسع كما يُتعمَلُ اليوم معه؛ أي: الحق بمفهوم حقوق الإنسان.

وهذا المفهوم الذي يتبناه هوبز مثلاً حين يقول: إن الحق الطبيعي الأول الذي يمكن أن تُستنبط الحقوق الأخرى منه هو حق الإنسان في البقاء، ويمكن أن يستنبط منه استخدام كل الوسائل ليحافظ على هذا البقاء وأن يحكم بنفسه على ما هو ضروري لهذا البقاء وأن يكون له الحق في أن يملك ما يحقق له هذا البقاء^(٢٥). وقد اهتم معظم مفكري الأنوار بالتركيز على حق التملك أو الحق بالملكية، فنرى جون لوك مثلاً يركز على: الحرية، والحياة، والملكية^(٢٦).

ولكن هوبز يعود ليؤكد أن هذه الحقوق الطبيعية ليست مطلقة وإنما لا بد أن يكون الإنسان مستعداً لأن يتنازل عن بعضها في سبيل الاتفاق على عقد اجتماعي طوعي بينه وبين أقرانه، فيقول "على الإنسان أن يكون مُستعداً، حين يكون الآخرون مستعدين، وأن يتخلى عن حقه في كل شيء بالقدر الذي يراه ضرورياً للسلام وللدفاع عن نفسه، وأن يرضى لنفسه بقدر من الحرية إزاء الآخرين، يساوي قدرَ حريتهم إزاءه". (هوبز، ص ١٤٠) على أن التخلي عن الحق في الحرية يكون إما بتركه أو بتفويضه إلى آخر ليصل إلى تحديد مفهوم العقد بوصفه التفويض المتبادل للحقوق^(٢٧).

ومن جانبه يرى كارل ماركس أن مفهوم الحق ليس إلا تعبيراً عن موقف طبقي، فإن من يدافع عن الملكية هم من يملكون ومن يريدون أن يُبقوا على الوضع القائم. فهو يعتبر أن كل مفهوم الحق الذي ساقه هيغل بأرقى شكل في كتابه "أصول فلسفة الحق" كان هدفه النهائي التعبير عن عظمة الدولة البروسية وعن شكلها القائم.

ويرى كونفوشيوس أن الإنسان الأسمى يعتبر الحق "ي" جوهر كل شيء، فيمارس هذا المبدأ طبقاً لمبدأ اللياقة "لي" ويبرزها في تواضع ويمضي بها إلى نهايتها في إخلاص. والحق "ي" هنا هو الفعل الصائب أخلاقياً؛ فكل الأفعال يجب القيام بها بسبب هو صوابها أو لأنها حق وليس ما تنتج^(٢٨).

أما بودا فيرى أن الذين يتصورون الحق في غير الحق، ويرون غير الحق في الحق لن يصلوا إلى الحقيقة أبداً، أما الذين يعرفون الحق في الحق وغير الحق في غير الحق فهم الذين يصلون إلى الحقيقة. وعند بودا كذلك أن الحقيقة واحدة لا تتجزأ، وأنه ليس في العالم إلا حقيقة واحدة، وهي أن الحقيقة تراءت لك بمظاهر شتى، فكل ما يدعو إلى الخطيئة ليس بحق ألبيته^(٢٩).

يرى الكندي بأنه: "ينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أي أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا، والأمم المبينة، فإن لا شيء أولى بطالب الحق من الحق"^(٣٠).

يقول ابن سينا: "يطلب الحق لذاته لا لشيء غيره، وأن تصرة الحق شرف، ونصرة الباطل سرف"^(٣١).

كاستنتاج عام، يتبين لنا أن الحق من حيث هو مفهوم فلسفي كان أساس الحوار المتواصل بين الفلاسفة والمفكرين منذ القدم، وقد تأرجح عند الفلاسفة بين اعتباره حقاً طبيعياً أو حقاً ثقافياً، أو ما بين المطلق والنسبي.

وأما مفهوم الحق في الإسلام، فينقسم ويتحدد بحدود حاسمة يقدمها الخطاب القرآني، وهو مفهوم يشمل جميع الموجودات المخلوقة لله، وإن كان الخطاب القرآني يركز على الحق بمفهومه الإنساني؛ أي من حيث صلته بالوجود البشري، وعلاقة هؤلاء مع أنفسهم ومع غيرهم ومع العالم، وحتى علاقتهم مع الله. ومن ثمَّ فإن معرفة الحق تكون بمعرفة الله؛ لأن الله هو الحق مثلما أنه مصدر الحق.

المبحث الثاني: تأصيل معنى الخير.

الخبر في اللغة:

الخبر لفظ كلي في القرآن الكريم؛ حيث ورد مئة وثمانين مرة في خمس وخمسين سورة^(٣٢). والخير في الأصل اللغوي يدل على العطف والميل، وأيضًا الاستخارة، وهي الاستعطاف؛ لأن المتخير يسأل خير الأمرين. والخيرة هي الاختيار؛ لأن المختار لأمر ما أنما هو مائل إليه، ومنعطف عليه دون غيره^(٣٣). ولفظ الخير في القرآن الكريم يأتي على وجهين: أحدهما: أن يكون اسمًا، وثانيهما: أن يكون وصفًا. ومن حيث المعنى فقد أُطلق الخير على معاني كثيرة، منها: الطاعة، والعبادة، والطعام، والقوة، والمال، والخيل، والصلاح، والكرم، والاختيار. ولفظ الخير كغيره من ألفاظ القرآن الكريم، لا يُفهم إلا من خلال السياق الذي ورد فيه^(٣٤). وجاء في مقاييس اللغة للرازي: "الخبر أصله العطف والميل، ثم يُحمل عليه. فالخير خلاف الشر لأن كل أحد يميل إليه ويعطف على صاحبه. والاستخارة أن تسأل خير الأمرين. ثم يُصرف الكلام فيقال رجل خَيْر وامرأة خَيْرَة: فاضلة، وامرأة خَيْرَة في صلاحها، وامرأة خَيْرَة في جمالها وميسمها^(٣٥). ومما سجله الفيروزآبادي في بصائر ذوي التمييز تحت كلمة الخير: "وهو ضد الشر. وهو ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلاً والعدل والفضل والشيء النافع"^(٣٦).

وفي لسان العرب لابن منظور: "فإن أردت معنى التفضيل قلت: فلان خير الناس. ولم تقل أخَيْر^(٣٧). وأشمل التعريفات لمعنى الخير ما أورده أبو البقاء الكفوي في الكليات: "الخبر وجدان كل شيء، كما لاته اللاتقة، والشر ما به فقدان ذلك"^(٣٨).

وتدل كلمة خير على البحث في مقومات "الخبر" وشروطه عند الإنسان، وتحديد طبيعة الفضائل المختلفة أو صفات الخلق الخيرة وأضدادها، ومعرفة العلاقة المتبادلة بينها^(٣٩). وأما الخير لغة فهو ضد الشر، وجمعه خُيور والخير بين الأشياء أي فضل بعضها على بعض، والشيء على غيره. والخير هو الكرم والشرف والأصل، والطيبة^(٤٠). والخير اصطلاحًا هو ما يرغب فيه كل الناس، كالعقل، والعدل، والفضل، والشيء النافع، وضده الشر، والخير يطلق على نوعين: أحدهما: خير مطلق، وهو أن يكون مرغوباً فيه بكل حال، كمطلب الجنة، وثانيهما: نسبي، كالمال الذي يكون خيراً لبعضهم ويكون شراً ووبالاً للآخرين^(٤١). كما يتضح، فإن الخير هو كل ما فيه نفع للإنسان ومصالحة رغب فيه أو لم يرغب، وقد يكون الخير مطلقاً وهو أن يكون مرغوباً فيه بكل الأحوال وعند كل أحد، أو مُقيد أو نسبي، كأن يكون خيراً للواحد وشراً للآخر.

الخبر في الدراسات الفلسفية:

ومفهوم الخير في الدراسات الفلسفية، هو الأساس الذي تُبنى عليه مفاهيم الأخلاق كلها؛ لأنه المقياس الذي نحكم به على قيمة أفعالنا في الماضي والحاضر والمستقبل^(٤٢).

في فلسفة جدلية الحق والخير

يقول بوئنيوس: "إن الله بارئ كل شيء، هو خير، إذ لا يمكن للعقل أن يتصور ما هو خير منه، وما لا يوجد خير منه لا بد من أن يكون هو نفسه خيراً؛ ويتحقق فيه الخير الأكمل؛ أي أن ذلك الذي هو مصدر الأشياء جميعاً هو بذاته وبجوهره الخير الأسمى"^(٤٣).

ويضيف "إن السبب الرئيس لطلب الأشياء جميعاً هو الخيرية؛ لأن ما ليس خيراً لا يمكن لأحد أن يرغب فيه. وإذا كان الناس يتوقون أحياناً إلى ما ليس خيراً فلاعتقادهم الخاطئ أنه خير. إن الخير الأسمى هو هدف البشر، أختيارهم وأشرارهم على السواء، فأما الأخيار فيسعون إليه بالنشاط الطبيعي وهو ممارسة فضائلهم، وأما الأشرار فيعمدون إلى تحصيل الشيء نفسه من خلال شهوات شتى ليست بالوظيفة الطبيعية لاكتساب الخير. ينتج من ذلك أن هناك مبرراً لأن تعتقد أن الخير هو النقطة المحورية التي تتعلق بها كل المساعي والدوافع. والناس يرغبون في كل الأشياء من أجل الخير الذي فيها. وللمرء إذن أن يستنتج أن جوهر الله أيضاً إنما يكمن في الخير نفسه وليس في أي شيء آخر". ويرى "إن الأخيار وحدهم الأقوياء؛ لأن الأخيار لا تُعوزهم القوة، والأشرار مُجردون منها. فحيث إن الخير والشر ضدان فضعف الشر تثبته قوة الخير، والعكس بالعكس"^(٤٤).

يمكن القول إن لدينا معنيين لكلمة خير؛ فهي في معناها العام تعني الطابع الذي يتخذه أي شيء في كونه موضوعاً لاهتمام إيجابي، وعلى ذلك فكل ما يرغب فيه الإنسان أو يحبه أو يريده هو خير. أما مفهومها الخاص، فإن صفة الخير الأخلاقي تتجه نحو الاهتمامات المنظمة تنظيمياً يتوافق مع اهتمامات الآخرين ومصالحهم؛ الحياة الخيرة من الناحية الأخلاقية يمكن أن تُوصف بأنها شرط السعادة، وهو شرط تكون فيه كل المصالح إيجابية، ويلقي هذا الوصف ضوءاً على المطلب التقليدي للسعادة الذي هو الهدف الأخلاقي الأسمى^(٤٥).

وهكذا فإن الخير بالمعنى العام؛ أي إيمان الفرد بخيره الذاتي، هو الذي يؤدي إلى إيمانه بالخير العام، والنتيجة المترتبة على هذا الإيمان هي أن الخير العام موجود فعلاً، وهذا الخير يَعدُّ المفكرون أهم قيم الحياة، وإنكاره يجرّد الحياة من هذه القيمة^(٤٦).

وهذا الخير العام هو الذي يمثل القيمة العليا في تنظيم سائر القيم، وينقلنا إلى مفهوم الخير الأسمى، فمعظم الفلاسفة يرون أن للعالم خيراً يجسده أو غاية قصوى يطلبها، يُدرك فيها خير الجنس البشري على أنه هو نفسه "الخير العام" أو "المطلق" أو متضمن فيه أو وثيق الاتصال به. والخير الأسمى يمثل القانون الإلهي، كما رأى سبينوزا، فالناس عادة والشرائع والأديان. يهتمون "بالخير الأسمى"، أو القانون الإنساني، بوصفه قاعدة للحياة مَهْمَتُها الوحيدة هي المحافظة على سلامة الحياة والدولة، أما القانون الإلهي فيعني به قاعدة لا تهدف إلا للخير الأقصى، أي إلى المعرفة وإلى حب الله؛ فحب الله هو سعادة الإنسان القصوى، ومعظم الأشياء التي نسميها خيراً لا تكون لها قيمة إلا من حيث هي وسيلة لخير أشمل منها، وهذا بدوره يبين أنه ليس إلا وسيلة لخير آخر أبعد منه مدى، وهكذا يكون لدينا سُلّمٌ مندرج حتى نصل للخير الأسمى^(٤٧).

وإذا رجعنا إلى تاريخ الفكر الفلسفي، فنجد أن مفهوم الخير عند سقراط من خلال شعاره "اعرف نفسك"، وهذا الشعار يكشف عن مضمون أخلاقي؛ فمعرفة النفس عنده هي معرفة "الخير" وتحقيق الفضيلة، فالفضيلة عنده علم والرديلة جهل^(٤٨). ومن المناسب الإشارة إلى أن سقراط قد بنى الأحكام الأخلاقية على مبادئ عامة تصدق في كل زمان ومكان، فقد حرص على إيجاد مقياس ثابت تقاس به خيرية الأفعال^(٤٩).

أما أفلاطون في محاوره (مينون) فقد أشار إلى أن الفضيلة معرفة، فمن عرف الخير رغب فيه، ومن عرف الشر رغب عنه^(٥٠).

وأما أرسطو فيقول: "كل الفنون، وكل الأبحاث العقلية المرتبة، وأفعالنا جميعها، ومقاصدنا الأخلاقية جميعها يظهر أن غرضها شيء من الخير نرغب في بلوغه، إنه موضوع آمالنا جميعها"^(٥١).

أما أرسطو، مؤسس المدرسة القورينية، فقال: إن لذة اللحظة الحاضرة هي التي تتحكم في كل خير. وهو موقف المدرسة الأبيقورية حيث قالوا: إن اللذة هي الخير الأسمى، والألم هو الشر الأقصى^(٥٢).

أما الفيلسوف زينون فقال: "الحياة وفقاً للطبيعة"، بمعنى: أن الحياة الخيرة هي في قمع الشهوات والعيش وفقاً لقانون الطبيعة أو مع العقل لبلوغ السعادة^(٥٣).

من جهته، يرى ديكرت أن الخير الأسمى هو معرفة الحق؛ لأن الخير والحق أمر واحد^(٥٤).

وقد صاغ كانت المبدأ الأخلاقي، الذي يعتبر الدعامة الأساسية لكل سلوك أخلاقي ومبدأ الأخلاقي هو الإرادة الخيرة؛ أي الشيء الوحيد الذي يمكن عده خيراً على الإطلاق، المعتمد على النية الطيبة التي لا يعادلها أي خير من الخيرات في هذا العالم، وتتمثل في إرادة العمل بمقتضى مبدأ "الواجب"^(٥٥).

المبحث الثالث:

تأصيل معنى الخطاب.

الخطاب لغة:

في ضوء اللغة تبين أن "الخطاب" مصدر يعود في أصله إلى الفعل الثلاثي خَطَبَ ومعناه: المراجعة في الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً وهما يتخاطبان. وخطب الخاطب على المنبر واختطب يخطب خطابة، واسم الكلام الخطبة، وخطبت المرأة خطبة بالكسر واختطبت فيها، وذهب أبو إسحق إلى أن الخطبة عند العرب هي الكلام المنشور المُسجَع ونحوه، والخطبة مثل: الرسالة لها أول وآخر^(٥٦).

وكذلك نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما- الخطاب هو المواجهة بالكلام^(٥٧).

وذكر الزمخشري أن الخطاب هو المواجهة بالكلام^(٥٨).

والخطاب اصطلاحاً:

كل ملفوظ يندرج تحت نظام اللغة وقوانينها فهو نص، وإذا ما خرج ليندرج تحت السياقات الاجتماعية سمي خطاباً، إذن يضطلع بمهمة توصيل رسالة، ومن ثم فهو وسيلة أيولوجية^(٥٩).

بشكل عام، الخطاب هو فعالية حجاجية واستدلالية تتقصد الاقتناع^(٦٠). والخطاب عند أرسطو هو الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان^(٦١). كما أن الخطاب هو قياس مُرغَّب من مقدمات مقبولة أو مضنونة ممن هو مُعْتَقَد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومفادهم^(٦٢).

وينظر إلى الخطاب على أنه حدث للتواصل يشمل التفاعل المحادثاتي والنص المكتوب، وكذلك الإيماء وتعبيرات الوجه،

ومخطط الطباعة، والصور، وأي بُعد "سيميائي" العلامات أو الدلالات اللغوية وغير اللغوية^(٦٣). نرى هنا أن الخطاب لغة واصفة تتوخى وصف جميع الأنساق السيميائية الدالة وتحليلها، وتضم الجوانب الفنية والجمالية؛ وكذلك فاعلية الخطاب ونجاعته؛ أي: الجوانب الاستدلالية العملية البيانية، من منظور وظيفته العملية والإنجازية، وهي القدرة في التأثير في المتلقي لتعديل موقفه أو سلوكه من خلال المزوجة في الخطاب بين الصنعة اللفظية والحجة العقلية.

المبحث الرابع:

غاية الخطاب القرآني: الإنسان والخلافة في الأرض.

يُنظر إلى الخطاب بوصفه عملاً ما أو عملية ما، ولهذه العملية أكثر من طرف أو عنصر: فهناك المُخاطَب، وهناك من يتوجه إليه الخطاب، أي: المُخاطَب، وهناك موضوع الخطاب ومادته المعرفية، وهناك أدوات الخطاب ووسائله، وهناك الأسلوب الذي يتم فيه نقل الخطاب، وهناك الغاية أو المعنى التي يسعى صاحب الخطاب لتحقيقها من خطابه. هذه العناصر هي عناصر الخطاب في حد ذاته، لكن هناك عنصر آخر هو بمثابة الوعاء للخطاب، فالخطاب لا يمارس في فراغ وهذا العنصر هو البيئة الاجتماعية التي سيمارس فيها وعليها الخطاب^(٦٤).

وفي ما يخص الخطاب القرآني، نجد أن القصدية أو الغائية فيه دليل على الإرادة العاقلة والقدرة الواعية، والغائية محور الوحي، وهي بالنسبة إلى الإنسان تحقيق مصلحته؛ فالغاية هي الباعث للفعل، وإنكار الغاية في موضوع الخطاب القرآني يؤدي إلى الفصل التام بين الخالق والمخلوق، فالله ﷻ فعال لما يريد ثم هو منزّه عن العبث، في حين أن الغائية هي محور الفكر الأصلي في إقامة الشرع على أساس المصلحة. إن إثبات الغائية أو القصدية واضح في الآيات القرآنية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أو ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والغائية أساس الوجود في الإنسان وفي الطبيعة لأن ما لا غرض فيه عبث وعلى الحكيم (الله) محال؛ فمن خلق ما لا يزيل بخلقه خذراً ولا ينتفع به غيره ولا يضر به غيره فهو عابث^(٦٥).

وعليه، فالله ﷻ يوجد الأشياء جميعاً بقصد الخيرية، أو كما يرى الكندي، فمحور الغائية هو إرادة الله وقدرة الله المبدع. وهي تحقيق الأمر الأصلى^(٦٦).

ومن هنا فإنه عند النظر في الخطاب القرآني نجد أنه مُتضمن غاية، وهذه الغاية تتبثق من مبدأ الغائية القصوى الإلهية العامة التي خُلق الإنسان من أجلها، وليس بمقدور الإنسان تحديدها لنفسه، لأنه لم يخلق نفسه، وإنما الذي حدد الغاية من خلق الإنسان ووجوده في هذه الحياة هو خالق الإنسان، وهو الله ﷻ الذي أخبرنا أولاً أنه لم يخلقنا عبثاً وبلا غاية ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وأخبرنا ثانياً عن الغاية التي خُلقنا من أجلها وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكل عمل أو نشاط يقوم به الإنسان صغيراً أو كبيراً مهما كانت قيمته وتقديره ينبغي أن يكون بحيث يحقق هذه الغاية التي خلق الإنسان من أجلها، أي عبادة الله وطاعته وتحقيق الخير في الأرض^(٦٧).

إن تحقيق الغاية التي خُلق الإنسان من أجلها يحتاج من الإنسان القيام بأعمال مخصوصه ونشاط معين، وحركة في الحياة على هذه الأرض متجهة نحو هذه الغاية. هذه الحركة وهذا النشاط وهذه الأعمال تشكل في جملتها المهمة المطلوب

منه القيام بها، وهي التي أسماها القرآن الكريم "بالخلافة في الأرض". وردت عبارة خليفة في القرآن بمعنى النيابة عن الله في الأرض في موضعين وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص، ٢٦] (١٨).

من هنا نفهم أن الله قدر خلق الإنسان، وحدد له الغاية من خلقه وهي عبادة الله، ثم حدد له المهمة التي عليه القيام بها، وهذان الخلق والتحديد مرتبان هنا منطقيًا. أما هما في علم الله، فلا سابق ولا لاحق، وتحديد هذه المهمة، وهي الخلافة، يؤدي إلى الوصول إلى تحقيق الغاية التي خلق الإنسان من أجلها، وهي العبادة، فالخلافة والعبادة معنيان مترابطان متسقان متكاملان. لهذا لم نجد مصطلح "الخليفة في الأرض" إلا في الأديان الإلهية، أما في الفلسفات الإنسانية المختلفة فلا وجود لهذا المصطلح بهذا المعنى القرآني.

وخلافة الإنسان في الأرض، قيل فيها: إنها خلافة عن الله في الأرض، وقيل: ليست عن الله تنزيهاً لله ﷻ عن حاجته إلى الخليفة، والذي نؤكد هنا هو ما تؤكد آية الاستخلاف الأنفة الذكر، فالآية الكريمة بينت مُسْتَخْلَفًا هو الله ﷻ، جعل الإنسان خليفة في الأرض، فحدد بذلك مهمته في حياته في هذه الدنيا، وهذا الاستخلاف له شروط وأحكام ومقاصد حددها الله، وهنا يلتقي مفهوم العبادة بالخلافة (١٩).

ويتضح لنا من استقراء ألفاظ الخلافة والاستخلاف في القرآن الكريم يشير إلى معنى يخص الإنسان، أي استخلاف قوم بعد قوم في الأرض، وداوود عليه السلام جعله الله خليفة في الأرض بعد حكام سبقوه، وليس نائباً عن الله في الأرض.

وأرى بأن أهم مهمة للإنسان هي إقامة العدل والحق وتحقيق الخير. وهذا ما ذهب إليه أبو الأعلى المودودي حين قال: إن العبادة لله ليست فقط في الصلاة والزكاة والصوم وغيرها من أركان الإسلام، وإنما في أن يحكم الإنسان في الأرض بالحق، وأن يعمل الخير، وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۗ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٤].

فالعبادة لله تتناقض مع فعل الشر، واقتراف الكذب، والخيانة، والغيبة والنميمة، ونقض العهود، واستحلال المحارم، وغمط الحق، واضطهاد الضعفاء، وإنما لا بد من ضرورة القيام بالدعوة إلى الخير والحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٠).

وسواء فهم الاستخلاف للإنسان في الأرض على معنى الخلافة أو السلطة أو الحكم، أو على معنى تصيير الإنسان على العموم خليفة في الأرض، فإنه لا بُدَّ ينطوي على معنى راسخ من معاني التكليف الإلهي، ومن ثم يصبح السؤال مُتعلِّقاً بالغرض والمعنى والغاية من هذا التكليف، وأخص هذه المعاني هو عمارة الأرض بفضرة الخير والحق والعدل، فإذا اختلفت هذه المبادئ في الإنسان وما يصدر منه من أفعال انحرف فعل المكلف عن غايته. وهكذا فإن الظلم والجور والاستعباد وأفعال الشر هي بالتنام ما يدحر مبادئ الخير والحق والعدل التي يؤكد عليها الخطاب القرآني وتُعدُّ جوهر فلسفة التكليف.

الخطاب القرآني إذن في مجمله، سواء تعلق هذا الخطاب بالعقيدة وأصول الدين أم في العبادات والمعاملات، أم في القصص والأخبار ذات الاعتبار العقلي والنظري، هو بالنتيجة خطاب تكليفي عام للناس يهدف بالإساس إلى ربط الحياة والفعل البشري ربطاً موضوعياً أو مفهوماً بالخير والحق.

المبحث الخامس:

تلازم الحق والخير: مقارنة الإشكال من منظور قرآني.

في أول الأمر، لا بد من القول إنه مع تعدد قراءة الخطاب القرآني المقدس، وتعدد أوجه امتلاك المعنى فيه واكتشاف حقيقة الدلالة، فإن هذه القراءات ظلت قاصرة عن الإلمام لكل ذلك، وظلت جهود المشتغلين في مقارنة النص القرآني في ضوء المناهج المختلفة ضريباً من الاهتداء إلى المعنى الأصلي، ولما كانت الثقافة العربية الإسلامية ثقافة "نص" بالأساس، أي أن مدار الاهتمام فيها إنما هو هذا النص القرآني التأسيسي ببعده العقدي والمعجز بفنون اللغة وضروب الدلالة فيها، لذا فإنه ليس من السهل الإحاطة بالمعنى تماماً باعتباره نصاً مقدساً ومتعالياً مفتوحاً على الحقيقة والمعنى، لا يحضر منشئه إلا في الخطاب، ولكن هذا الخطاب يصرح في مواضع ويلمح في أخرى^(٧١).

وللغزالي قول جامع في طرق استثمار الدلالة النصية في القرآن والسنة حيث يقول: "إن الحكم على مراد الله سبحانه -، ومراد رسوله ﷺ بالظن والتخمين خطر، وإنما تعلم مراد المتكلم بإظهار مراده، فإذا لم يظهر فمن أين تعلم مراده إلا أن تتحصر وجوه الاحتمالات ويبطل الجميع إلا واحداً، فيتعين الواحد بالبرهان، ولكن وجوه الاحتمالات في كلام العرب، وطرق التوسع فيه كثير، فمتى لم تتحصر ذلك فالتوقف في التأويل أسلم^(٧٢)."

في ضوء ما سلف فإنه سيتم تناول موضوع تلازم الحق والخير من منظور الخطاب القرآني ومقاربات هذا الخطاب في ضوء المطالب الآتية:

المطلب الأول: ضوابط تنزيل القرآن وتثبيته كنص نهائي.

﴿الم * نَلِكِ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، "الم" أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب، ولكنه، مع هذا، هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. لا ريب فيه ولا شك، الهدى حقيقته، والهدى طبيعته، والهدى كيانه، والهدى ماهيته هدى ونوراً ودليلاً ناصحاً مبيئاً للمتقين، فالتقوى في القلب هي التي توهمه للانتفاع بهذا الكتاب^(٧٣).

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] هكذا أعلى وجه الإطلاق، هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل الهدى كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان^(٧٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ سُؤكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١]. وفي هذه الآية الكريمة من سورة المائدة، يوجه الله ﷻ المؤمنين بعدم طلب تكليف إلهي لهم قبل نزوله، فهو سبحانه يراقب تطورهم ونموهم الإيماني والنفسي، فيعلم الوقت المناسب لتكليفهم بأمر جديد يزيدهم نضجاً ونمواً. ولكنهم قد لا يجيدون تقييم قدراتهم فيطلبون الأمر قبل أن يكونوا قادرين على تحمل تبعاته. ومرة أخرى نقول: إن كل ما يقوله الله حق فهو سبحانه مصدر الحق، ولكنه ينعم على الأمة المخاطبة بالحق الذي تقدر على تنفيذه فتزداد به إيماناً وترتفع به قدرًا. فهي خطة محكمة لا يقدر عليها إلا الله، أو كما يقول سيد قطب "فهو يُشْرَعُ لهم في حدود طاقتهم، ويكشف لهم من الغيب ما تدرکه طبيعتهم^(٧٥)."

﴿بِنَا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. ولا بد أن يكون الخطاب واضحاً سهل الفهم لينفذه جميع المخاطبين، وذلك حرصاً على انتفاع المخاطبين بالحق المنزل إليهم، فلا نفع في حق لا يعقله سامعه. فخطاب القرآن، إذن، ميسور الفهم، ممكن التعقل، لمن أراد الفهم، ورغب في التعقل، وهذا يشير إلى أن إمكانية الفهم والتعقل ليست قاصرة على العرب فقط، بل تشمل جميع أفراد البشر^(٧٦).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۗ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۗ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣]. وبعض الحق يجب أن يكون جواباً لما في نفوس المخاطبين، حتى لو كانت أسئلتهم للجدل والاعتراض العبيثي، فإنهم إن لم يؤمنوا ولم يتقبلوا الحق الذي يردُّ على اعتراضاتهم يزداد به المؤمنون إيماناً ويزدادون به ثباتاً وصلابة فكرٍ. وتتحدث أولى الآيتين عن نزول القرآن منجماً معللاً ذلك بتثبيته لفؤاد النبي. إذن، فظروف المخاطب الأول، وهو النبي كأمي يتلقى القرآن سماعاً وعليه حفظه بقية عمره، أوجب إنزاله منجماً وعلى مكثٍ ليرسخ في قلب النبي؛ ثم إن طبيعة الأمة المخاطبة كأمة خصمة تخترع الأباطيل والحجج أوجب أيضاً إنزاله منجماً ليرد على ما تبدع عقولهم من الحجج والأسئلة التي كانت ستبقى دون جواب لو نزل كاملاً مرةً واحدةً. ويبقى الهدف من كل هذه الخطط خير الأمة المخاطبة ونفعها^(٧٧).

وفي ضوء ما تقدم يتقرر أن خير المخاطبين كان مقصوداً بنزول القرآن وطريقة نزوله، وقبل ذلك جميعاً اللغة التي يتنزل بها وطباع قومها وثقافتهم. ونجد أن الخطاب القرآني قد أثار كل ملكات التعقل والإدراك لدى الإنسان، وهذا من مقاصد الخطاب القرآني وأهدافه.

المطلب الثاني: أهداف رئيسية للقرآن.

﴿الرَّ ۗ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [ابراهيم: ١]. حسب هذه الآية الهدف الرئيس للقرآن هو إخراج الناس به من ظلمات تخلف وجهل وانحراف إلى نور الحكمة والتقوى وحسن الخلق ومعرفة الله وطاعته^(٧٨).

﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۗ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وتشير هذه الآية إلى هدف متطور من أهداف القرآن هو تحرير المؤمنين من بقية الجاهلية وظلماتها وأهوائها ومن العلل الاجتماعية؛ لتعيش بأمن وسلام. فهو شفاء للمؤمنين ورحمة بهم. وفي المقابل يكون خسراناً للظالمين أعداء المؤمنين. وفي الحاليتين هو خير ونفع للمخاطبين عندما يكون شفاءً ورحمةً لهم وخسراناً لأعدائهم^(٧٩).

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وتشير هذه الآية إلى وعد عظيم للمخاطبين؛ فالكتاب المنزل إليهم سيغير حالهم ارتقاءً وتطوراً ناجحاً حتى يكون لهم به شرف وعلوٌ وذكرٌ بين شعوب الأرض. وأي خيرٍ أعظم من هذا؟

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤].

وتؤكد هذه الآية أن القرآن واعظ إلى التقوى وهي خير الخلق.

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وفي الآية التفات إلى عقلاء المجتمع ليكون لهم دورٌ في التمسك بالكتاب ونشر آياته في المجتمع، فهي بذلك تُعَلِّمُ الفئات الأوسع وتضعها في مقدمة المجتمع ليقندي بها فينتقل المجتمع إلى الحال الأفضل.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

إزالة أسباب الاختلاف في العقائد بين المخاطبين هدف كبير للقرآن؛ فالتقارب الثقافي بين فئات المجتمع وإجابة الأسئلة المحيرة التي تسبب اختلاف الناس واجب أساسي للخطاب في الدول الأكثر تطوراً، التي تهتم بشأن شعوبها الثقافي. وفي الوقت نفسه تقول الآية إنه هدىً ورحمةً للمؤمنين؛ وهو يهدي المخاطبين إلى السلوك السليم والطريق المستقيم فهو رحمةً في الناس المنسجمين فكرياً المتقاربين ثقافياً.

ونجمل عناصر هذه المجموعة بأن القرآن وهو ينزل بقائق من عند الله إنما يهدف إلى تليخيس المخاطبين من عاداتهم السيئة المخالفة للفطرة البشرية وينقلهم إلى سلوك القيم السليمة، كما يبين لهم الصواب بشأن ما يختلفون حوله لتوحيدهم فكرياً وثقافياً، وينزل عليهم آياتٍ تبين لهم الطريق السوي وتضع عقلاءهم أمامهم ليقندوا بهم؛ وبذا ينقلهم إلى مرحلة أعلى من النضج الخلقي والنفسي؛ فيستحقون مكانة أعلى بين شعوب الأرض ويكون لهم ذكراً ومكاناً شريفاً على سلم التقدم البشري.

– انطلاق النص من حاجات المؤمنين وحل مشكلاتهم:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّنْ نَسَائِهِمْ مِمَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ١، ٢].

يتضح من هاتين الآيتين أن القرآن كان ينطلق من واقع المُخَاطَبِينَ لينقلهم إلى واقع أفضل ومستوى أعلى، وينهاهم عن عاداتٍ سيئة كانت دارجةً بينهم. ولم يكن ينطلق من فراغ، بل واضح من نص الآيتين أنهما تنزلتا فور سماع الله لجدال بين امرأة والنبي بشأن زوجها الذي ظاهراً ظالماً لها ومخالفاً لأمر الله ولطبيعة العلاقة الزوجية السليمة، فجاء تحريم فعلته كي لا يقع بها أحدٌ بعده وجعل لذنبه كفارةً شديدة^(٨٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مِمَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * نُولَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * نُولَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١١-١٣].

وهاتان آيتان من سورة النور تخاطبان في الاتجاه نفسه المؤمنين بشأن تفاعلهم مع حادثٍ بل شائعةٍ ظالمةٍ ولدت حول زوج النبي فتزلت آياتٌ وتشريعاتٌ لتحريهم من سلوكٍ ظلاميٍّ، ونقلهم إلى نور العفة وطهر المجتمع المؤمن، فكانت واحدةً من أعظم نقلات المجتمع من الظلمات إلى النور؛ منطلقة من سلوكٍ لعله كان شائعاً قبل الإسلام.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِثَّتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * إِنْ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِثَّتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥-٦٦].

وفي ضوء الوقوف على معاني هاتين الآيتين من سورة الأنفال، أرى أنهما تشكلان مثلاً حياً على مراقبة الله للفئة المؤمنة مع رسول الله، ومخاطبتها بما يناسب حالها صعوداً وهبوطاً منطلقاً من ظروفها المتجددة وبصدق لا يقدر عليه البشر في ذلك الزمن، فمع انتشار الدين الجديد وانضمام المئات إليه ممن لم يتربوا على يد النبي ﷺ لا بد أن ينخفض معدل الكفاءة العسكرية للمقاتل، فيخاطبهم الله تعالى بوضعهم الجديد كي لا تُحَمَّلهم قيادتهم أو إخوانهم السابقون في الإسلام فوق طاقتهم أو يُعَيَّرهم بانخفاض مستواهم مقارنةً بالمؤمنين الأوائل. تخفيف عبء، لكنه لا يعني ضعف الأمة، بل بيان مفيد للأمة جميعاً وللقيادة خصوصاً كي يستمرَّ العمل باتجاه أهداف الدعوة، وتستمر عملية تطوير المجتمع ضمن إمكاناته، صدقٌ وحقٌ وخيرٌ لا يجروء على إعلانه على الملأ إلا الله خصوصاً في تلك الأزمنة، واعترافٌ بالحق من أجل خير المجموع فهو خيرٌ من السكوت على الواقع المترجع خوفاً من فضيحةٍ أو شماتةٍ.

وبناء على ما تقدم، نستنتج من آيات هذه الفقرة وموافقها أن القرآن كان ينطلق من واقع الجماعة المخاطبة، ويُزِلُّ لها من التشريعات ما يناسب حالها لينطلق بها إلى حالٍ أفضلٍ وبصدقٍ نادرٍ الوجود كي لا تنام الأمة على حرير خداع الذات. فخيرٌ المجتمع هو المطلوب والتحول إلى الأفضل هدفاً لا إغفال له أو تراجع عنه ولو بكشف تراجع فئةٍ ما.

المطلب الثالث: جوازاً لإيهام في ظروف الحرب.

﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَهِشْتُمُ وَلِتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي آغْنِيكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آغْنِيهِمْ لِيُقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٣-٤٤].

تحدث هذه الآيات من سورة الأنفال عما أراه الله لنبيه في منامه ورؤيا الأنبياء حق تم لتأكيد هذه الرؤيا حقيقة وواقعاً بعيون المؤمنين والمشركين. في المنام جعل الله نبيه يرى مقاتلي قريش أقل مما هم في الحقيقة؛ ليسهل عليه اتخاذ قرار القتال، وبعد ترائي الفئتين رأى المؤمنون أن أعداءهم أقل مما هم حقيقة ورأى المشركون أن المسلمين أقل مما هم؛ وذلك ليزيل الخوف من نفوس المؤمنين ولِيُحْذِلَ المشركين؛ فيدخلون المعركة مستهينين بالمؤمنين ولا يستعدون الاستعداد الكافي للمعركة. وهذا الإيهام جائز بالحرب، بل يندر أن لا يلجأ خطاب دولة إلى الكذب لرفع معنويات مقاتليه وتخذيلاً أعدائه، والهدف منه خير الفئة المؤمنة وإن لم يكن مضمونه حقيقياً. وهو في الوقت نفسه إذن إلهي للمسلمين باستعماله في ظروف الحرب والخير العام.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمَقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧] (٨١).

وهنا في آية الفتح (٢٧) حالة أخرى شبيهة بحالة بدر ووصفها في سورة الأنفال نجدها في سورة الفتح؛ فقد وعد الله رسوله ﷺ بعمره إلى الكعبة فحالت قريش دون ذلك لعام كامل، فتنزلت الآيات لتبين للمؤمنين أن الرؤيا كانت صادقة، وأنها كانت السبب والعامل المحرك للأحداث التي مكنت النبي ﷺ والمؤمنين من دخول مكة رغم حالة الحرب القائمة بين الفئتين، فالنبي وعد المسلمين بالعمره بناء على الرؤيا ولكن العمره لم تتم بل تحققت أسبابها فكانت بعد مدة متفق عليها، وكان معها صلح ينظم العلاقة بين المؤمنين ومشركي مكة، فكان الصلح استراحة للمؤمنين من الحرب مع أقوى أعدائهم؛

ليفرغوا لنشر دينهم في قبائل أخرى، ويتضاءل عداء قريش للإسلام، فالله وعد وحقق الوعد لكن بوقت غير الذي فهمه النبي والمؤمنون، ولولا الفهم الخاطئ المحسوب النتائج عند الله ما كان صلح الحديبية ولا تلتها العمرة المنتصرة. ونستنتج من هذه الفقرة: أن الأمر العام الكبير يجيز التساهل بأمر الدقة في القول؛ وذلك لخير المخاطبين.

المطلب الرابع: توجيهات القرآن للمؤمنين بشأن الشهادة.

(ونظرًا إلى طول آيات الشهادة فسنجزي الجملة التي تحتوي كلمة الشهادة وتظهر قدرها عند الله تعالى).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِمَّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِثْلَ وَاحِدٍ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نُشْتَرِي بِهِ تَمَنًّا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِثْمِينَ * فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اِغْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦-١٠٨].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

هذه مجموعة من الآيات الكريمة اختيرت من بين آيات كثيرة تدعو إلى الحفاظ على حق الفرد في المجتمع، وتتهى بشدة عن كتمان الشهادة التي تكشف الحق. وفي (آيات المائدة ١٠٦-١٠٨) تدبير لعل العرب لم يعرفوه قبلها؛ فهي تأمر بلجنة وراء لجنة للوصول إلى الحق بشأن وصية شخص مات وترك تركة يلزم توزيعها بين ورثته بالحق مع اعتبار رغبته بما لا يتعد عن مبادئ العدل. وفي (آية النساء، ١٠٥) تنبيه النبي ﷺ من الحيد عن الحق أو الانحياز لخاصة يستتر بالإسلام ليظلم يهودياً أو يرميه بسرقة فعلها مسلم منافق وأكراها واحتال ليُنَّهَم بها اليهودي، فنزل القرآن يُبَيِّن اليهودي ويظهر الحق. إلى هذا الحد الذي لا يبلغ مخرج أبعد منه، يحرص القرآن على العدل والصدق في ما يتعلق بحقوق أفراد المجتمع ومنع الظلم وإجبار الشاهد على بيان ما لديه من الحق وإلا اعتبر آثماً.

ونخرج من هذا: أن حق الفرد والصدق في الشهادة أمر لا مساومة فيه ولا مكان للوهم ولا لأي احتيال يعيق تنفيذ الحكم بالحق، وبذا يحرم مجرد الإيهام بحق الأفراد أو تشويه سمعة إنسان بغير حق.

المطلب الخامس: توجيهات القرآن بمخاطبة النبي والملوك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ

وَرَاءَ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [الحجرات: ٥-١].
 ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٣-٤٧].

ولدى النظر في آيات سورة الحجرات وطه، فإننا نجد دعوة إلى خصوصية الخطاب مع نبي أو مع ملك، فأولوا المراكز الاجتماعية العليا يستحقون مخاطبة خاصة ليس كخطاب العامة بعضها بعضاً. وليس في الأمر نفاق ولا تسويغ لباطل أو كذب، لكن تليين القول والتأدب في لهجة الخطاب، فالنبي مرسل من الله مكرس بكليته لأتمته فيستحق الاحترام وإظهار التأدب بحضرته؛ إكراماً له على ما يقدم لقومه دون أجر ودون منة، وهي مسألة لهجة وتأدب، فلم يعترض القرآن ولا النبي ﷺ عندما وجه أحد الصحابة النبي قبيل معركة بدر مقترحاً تغيير قرار عسكري نبوي؛ وقيل النبي ﷺ وجهة نظره لصوابها، وهي نفع للأمة كلها عندما تتهدب وتعيش حالة تمدن راقية وتتحرر من جفوة البداوة ومن جلافتها القديمة^(٨٢).

وفي آيات طه تحديداً نلاحظ هنا توجيهها إلهياً صريحاً لموسى وهارون عليهما السلام بالقول اللين في حضرة فرعون؛ فهو قوي مصر وسيد شعبه وقد يغلب غضبه عقله فلا يلزم إثارتة بل مخاطبته باللين الذي يضعه بجو مريح عسى أن يسمع ويقبل الحق، وليس في الآيات أمر بنفاق أو كذب.

وتجلى توجيهات القرآن بمخاطبة الملوك في خطابات النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، كما ظهر ذلك في رسالة إلى هرقل عظيم الروم، ومثلها خاطب كسرى وسائر الملوك، فلم تحمل رسائله ﷺ تهديداً، بل تضمنت في ثناياها طمأننتهم على ملكهم، إن أسلموا أو هادنوا^(٨٣).

ويستنتج من هذه المواقف أن مخاطبة ذي المكانة المميزة تكون بالأدب اللائق بهم، وعدم التفوه أمامهم أو تكبرهم بما لا يليق، أو بلهجة غير ملائمة لمكانتهم. وهذا لا يغمط أو يضر بالحق. بما أن الهدف النهائي هو خير المخاطب الذي هو في مكانة مميزة، وانعكاس ذلك على خير المجتمع.

المطلب السادس: توجيهات القرآن للمؤمنين بشأن ما يسمعون.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رُدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

[الحجرات: ٦].

إن الناظر في سورة الحجرات آية (٦) يجد أنها سهلة التركيب قريبة المعنى؛ فهي تدعو المخاطبين إلى التأكد من صدق الرواية التي تصل إليهم، خصوصاً إن لم يكن الراوي ثقة معروفاً بالصدق ودقة الحديث. وتزداد الضرورة للدقة والصدق عندما يتعلق الخبر بمصالح أناس وسمعتهم، فالحق هنا ضرورياً لحماية المقصودين بالخبر الكاذب، فهو لنفهمم وخيرهم.

بيد أننا إذا نظرنا إلى آية النساء (٨٣) نلاحظ أنها تشير إلى أمر مهم شديد الخطورة وأكثر ما يظهر أيام الحروب والفتن والقلق السياسية والاجتماعية؛ فتكثر الشائعات وتسرّب أخبار من قبل أعداء أو منافقين ناقمين على المجتمع. وسواء أكان

الخبر شائعة أم حقيقة، فالأفضل رده إلى القيادة أو إلى ذوي الاختصاص ليجلوه ويستنبطوا منه ما ينفع الأمة أو يدفع عنها أذى، فالأخبار المصوغة من جهة مؤسسية تحتاج إلى خبرة مماثلة لفهمها ومعرفة هدفها.

وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون، "من أن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم أثم. وأن كل ما يصل إلى سمعك وعقلك وبصرك وفهمك فإنه لا بد من تكرار النظر فيه والتدبر له، فما كان موافقاً للحق فأمضه، وإن كان مخالفاً فأصرفه إلى المسألة عنه والتثبت فيه"^(٨٤).

وتأسيساً على ما تقدم فإننا نخرج بنتيجة مؤداها بأن تمحيص ما يقال ضروري لحماية المجتمع والجماعات والأفراد. والتمحيص على مستويين؛ الأول بسيط ويقصد منه تمييز الصدق من الكذب أو الوهم، والثاني أكثر تعقيداً ويحتاج إلى تحليل بواسطة خبراء لمعرفة هدفه لتجنيب الشعب ضرراً أو إفادته نفعاً.

المطلب السابع: توجيهات القرآن بشأن الحديث مع أتباع الأديان الأخرى في المجتمع.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْنَا وَالْهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿فِيمَا نَقُضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

هذه مجموعة من الآيات الكريمة تؤكد دون أدنى ملابسة أن في المجتمع فئات وطوائف تعتنق أدياناً أخرى غير دين الغالبية فقد وجه القرآن النبي ﷺ والمؤمنين إلى أسلوب التعامل السليم مع غير المسلمين خصوصاً أهل الكتاب؛ فأية آل عمران (٦٤) تدعو أهل الكتاب إلى الالتقاء على الشأن المشترك، وهو وحدانية الله، وعدم الشرك به ما دام الجميع يعبدون إلهاً واحداً، وتشمل الدعوة التحلي عن أي معبود غير الله .

وأن آية العنكبوت (٤٦) تدعو المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالحسنى وبما يلين القلب ولا ينفره وتُذَكَّرُ بالأمر المشترك بين أديان الفئتين، مع عدم التهاون مع الذين يتجاوزون حد العدل والاعتدال من أهل الكتاب.

على أن آية الأنعام (١٠٨) تخطو خطوة أكثر تسامحاً في التعايش بين الأديان، فتتهي عن سب آلهة من يعبد غير الله كي لا يتطور الاختلاف إلى صراع عقدي بين طوائف المجتمع، وكي يرضى المؤمنون بالأمر بتعيد الآية أمر اعتناق الناس عقائدهم إلى الله؛ فهو يزين للناس ما يؤمنون به بناء على ما يستحقون بما كسبوا واكتسبوا.

وأما بالنظر إلى آيتي البقرة (٩، ١٠) والمائدة (١٣) فهما تتكرران مكر أهل الكتاب بالإسلام وحسدهم للمؤمنين وتأمراً

بعضهم المستمر على المؤمنين، ومع هذا تأمر المؤمنين والنبِيِّ بالعبادة والصفح، وهذه التوصيات تليق بأن توجه للأقوى والمنتصر الممسك بأمر الأمة بثقة. ومع ذلك فإن الوفاء بالعهود والمواثيق يعد إيماناً وطاعة وعبادة لله، وهي من الدين ابتداءً، والوفاء بها من أسباب استقرار المجتمعات والسلم^(٨٥).

ومحصلة ما تقدم فإنني ألتمس دعوة للتعايش على أسس سليمة قوية تبدأ من الالتقاء على المشترك وتعظيمه والنهي عما يتعارض معه من مصالح شخصية، ثم الحوار بالحسنى والتسامح والصفح. ومن ثم فهو تساهل بأمر الحق لصالح خير المجتمع ونفعه واستقرار عيشه بضمان حرية الاعتقاد لمعظم فئات المجتمع.

المطلب الثامن: جمال أسلوب الخطاب وتأثيره.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وختام القول هنا يتقرر أن في كتاب الله المنزل تأقفاً في الحديث وجمالاً في الصياغة له تأثير مادي قابل للوصف الكمي؛ وبذلك يملك قدرته على هداية المخاطبين. فجمال سرده وتقوُّقه على كلام البشر يأتي عاملاً آخر ينضم إلى قيمتي الحق والخير. فتلتمم القيم الثلاث: الحق والخير والجمال وتتعانق لتصنع وحدة تحفر حضورها في نفس السامع ويبقى أثرها ما بقي حياً سوياً. ولهذا الجانب من القرآن أثر مادي على المخاطب. فعندما يشعر قارئ القرآن أو سامعه بعظمة مصدره يكون لمواعظه وقع أقوى في النفس. وعلى سبيل المثال نقول: النصيحة من رجل كبير وقور ذي علم أقوى أثراً من نصيحة شاب قليل الخبرة والمعرفة. والله المثل الأعلى. ونكتفي بذكر معجزة واحدة من القرآن تواجهنا منذ الآية الثانية من سورة البقرة. يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدَىٰ لِّلْمُتَّقِينَ﴾. منذ البداية المبكرة وبجملة قصيرة يصف صدق مصدره ويسجل رسالته الكلية (هدى للمتقين) وهي العبارة التي تقود كل ما في القرآن. وقد قرأنا في حياتنا آلاف الكتب فلم نجد كتاباً واحداً لا قبل القرآن ولا بعده ولا بأي لغة معروفة، يُعرف نفسه ويذكر رسالته الكلية بهذه القوة والوضوح والإيجاز. وما كان له هذا التأثير لولا أنه من عند الله. ولولا أن الله الخالق الحكيم الذي يعرف التكوين النفسي والجسدي للمخاطبين ولما تنزل عليهم بأسلوب قادر على التأثير فيهم وذلك بألفاظه وعلاقاته، وهي تترتب جملاً ذوات معانٍ تخاطب العقل ويجرس يؤثر في الحواس^(٨٦).

الخاتمة.

الحق والخيرية هما هدف الخطاب القرآني؛ وذلك بغرض ترسيخ مجموع القيم والمبادئ بشتى أنواعها المفاهيمية وأشكالها الأسلوبية ومضامينها القصدية، ومن هذه القيم المتمثلة في مضامين الخطاب تلك التي تتدرج تحت لواء العقيدة والسلوك الأخلاقي الرفيع، والخطاب في عالمنا العربي والإسلامي يفترض به أن يستمد مفاهيمه من كتاب الله تعالى في إطار الخطاب الهادف بعيداً عن الجهل وجذوره، كالتعننت والغلو والتكبر والتذهب والتحزب، معتمداً على ميزة الحكمة والموعظة الحسنة، وليس دعوة إلى قسوة أو عنف، فالخطاب المستمد من المعاني والأساليب القرآنية دعوة صريحة إلى بناء يرسخ مكارم الأخلاق ويدعو إلى الفضيلة والتوازن في المجتمع وإلى ثقافة المحبة والتسامح والمودة والآخاء ويحث على العمل والتعاون بين أفراد المجتمع، وهو يتحرى الحق والصدق البعيد عن الزور والبطلان والانحراف، وفق منطق الخطاب القرآني وإملاءات الضمير الحي ومضامين الحق والخير.

وعليه، فإن الأفكار تتجسد شيئاً فشيئاً لدى أي جماعة تتبناها وتعمل لتحقيقها، ولا يكون الاستيعاب حقيقياً إلا بالتدريج؛ فالتخلص من بعض العادات السيئة التي مورست مدة طويلة من الزمن وأصبحت ثابتة ومستقرة في السلوك ليس بالأمر السهل لكثير من الناس؛ إذ إن ذلك يحتاج إلى إرادة قوية وجهد كبيرين وبالتدرج. ومثال على ذلك أن القرآن نهر المسلمين في أول الأمر من شرب الخمر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] ثم أصبح بعد ذلك أشد حزمًا في تفتيرهم منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، ثم تدرج بعد ذلك في النهي عن تعاطيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

لذا جاء الخطاب القرآني محاكياً لظروف الأمة المخاطبة في بُعدها التاريخي المستمر والحي الذي لا يبلى على مدى الأزمنة. وبذا نتأكد من أن كل ما في القرآن إنما اختير بعناية لينتفع به المخاطبون، وصيغ بجمال ليؤثر بهم إيجاباً، وبما يسهل عليهم الانتفاع به واتباع أوامره. وليس لأنه حق فقط، وإلا فإن لدى الله تعالى من القول والعلم والأخبار ما لا يكفي ملء بحور الأرض جبراً لكتابته على ورق.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ النَّبِيُّ مِثْلًا مِّثْلِي لَآتَىٰ لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ النَّبِيُّ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وكل ما يصدر عن الله تعالى حق، ولكنه غائي يسعى لتحقيق غاية وهي خير المخاطبين، فغائية القرآن ملازمة للحق لا تتفك عنه وفقاً للنص القرآني. حتى أسماء الله الحسنى وهو سبحانه الذي ليس كمثله شيء وليس له كفوا أحد إنما ذكر القرآن من صفاته الحسنى ما ينفع الإنسان أو كما قال أبو حامد الغزالي: "بيان أن للعبد حظاً من معنى كل اسم من أسماء الله تعالى" (٨٧).

وقد انتهى الباحثان من تأمل نصوص الخطاب القرآني وتدبره استخلاص نتيجة مهمة نراها عصب البحث وحجر الزاوية فيه، مؤداها أن الله كان ينزل من الكتاب بالحق ما ينفع المخاطبين ولخيرهم، وأن القرآن الكريم كلام الله ﷻ المطلق الذي لا تعارض ولا تناقض بين آياته ومقاصده. فالحق خير والخير حق ومن مقاصد الحق هي الخير، فالحق والخير متلازمان.

وفي سؤال الحق للحق أم الحق للخير، تمثيل لمظهر سام من مظاهر الحق من حيث فعله وتوظيفه، أما عبارة الحق للحق فهي المظهر الأكبر في القرآن؛ حيث وردت كلمة الحق واشتقاقاته في آيات القرآن الكريم (٢٩٩) مرة (٨٨)، وتبين أن خلق السموات والأرض كان للحق، وتنزيل الكتب الإلهية كان للحق، والانتصار والنصر لا يكونان إلا للحق، وأن وظيفة الأنبياء هي الدعوة إلى الحق، بمعنى آخر لا يستقيم أمر الكون والإنسان والحياة إلا بالحق، أما المظهر الآخر فهو الخير، ووردت مشتقاته في القرآن الكريم (١٨٠) مرة (٨٩)، وهذا يعني أن الحكمة من جعل الحق مهيمناً على الحياة إنما هو للخير ولا شيء سوى الخير.

فغاية الحق في القرآن الكريم تأسيس الصلاح والخيرية للبشر وتكميل نوع الإنسان من جميع نواحي التشريع الروحي والثقافي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي، بأصول وقواعد هي أثبت وأكمل وأكفل للمصالح العامة، ودفع للمفاسد، وما ثبوتها وكمالها إلا لأنها حق، والحق هو الثابت الكامل، فالحق في منهج الله ﷻ أصيل في بناء هذا الوجود، والحق هو قوام هذا الوجود فإذا حاد عنه فسد وهلك، والخير كذلك أصيل كالحق في نظام الوجود.

والحمد لله رب العالمين.

الهوامش.

- (١) راضي، سمير بن جميل، كتاب الإعلام الإسلامي: رسالة وهدف، نشر رابطة العالم الإسلامي ضمن سلسلة دعوة الحق رقم ١٧٢، جدة، ١٤١٧هـ، ص ٦٣.
- (٢) أفلاطون، جمهورية أفلاطون، ترجمة: حنا خباز، دار القلم؛ بيروت-لبنان، (د.ت).
- (٣) محمد بازي، تحليل الخطاب في التراث العربي الإسلامي، عالم الفكر، عدد ١٧٧، الكويت، ٢٠١٩م.
- (٤) عبد القادر بودومة، إنسانيات النص وآليات القراءة عند محمد أركون ونصر حامد أبو زيد، العدد ١١٠، ٢٠٠٠م، ص ٢٥.
- (٥) عبد الرزاق الوزكي، مفهوم الحق في القرآن الكريم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م، ص ٤٢، ٨٤.
- (٦) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، حرف الحاء، ٢٠٠٣م، ص ٣٣٩.
- (٧) الرازي، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة العربية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٨م، ط ٢، ج ١، ص ٢٦٩.
- (٨) ابن منظور، محمد بن مكرم، (٦٣٠-٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، بيروت-لبنان، ١٩٩٩م، ج ٣، ٤٩/١٠ مادة حق.
- (٩) ابن منظور، محمد بن مكرم، (٦٣٠-٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، بيروت-لبنان، ١٩٩٩م، ج ٣، ٤٩/١٠ مادة حق.
- (١٠) ابن منظور، محمد بن مكرم، (٦٣٠-٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، بيروت-لبنان، ١٩٩٩م، ج ٣، ٤٩/١٠ مادة حق.
- (١١) ابن منظور، محمد بن مكرم، (٦٣٠-٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، بيروت-لبنان، ١٩٩٩م، ج ٣، ٤٩/١٠ مادة حق.
- (١٢) الراغب الأصفهاني، معجم ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر الإسلامي، ٢٠٠٠م، ص ١٢٤.
- (١٣) عبد الرزاق الوزكي، ص ٦٤.
- (١٤) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (٧٢٩-٨١٧هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٣هـ، ط ١، ج ٢، ص ٤٨٤، ج ٢، ص ٤٨٥.
- (١٥) قطب، ج ٥، ص ٢٢٥٣.
- (١٦) قطب، ج ٥، ص ٢٥٦٣.
- (١٧) قطب، ج ٥، ص ٢٥٦٣.
- (١٨) قطب، ج ٤، ص ٢٢٦٨.
- (١٩) قطب، ج ٢، ص ١١٢٧.
- (٢٠) حسين الخزاعي، مفهوم الحق في الفلسفة، منتدى ثمار الأوراق، العراق.
- (٢١) أمانويل كانت، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة: عبد الغفار ملكاوي، الدار القومي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٩، ٦١.
- (٢٢) إمام عبد الفتاح، ص ٣٢.
- (٢٣) إمام عبد الفتاح، ص ١٢٦.

في فلسفة جدلية الحق والخير

- (٢٤) هانت، ص ٩٩.
- (٢٥) سبيلا، محمد، وعبد السلام بنعبد العالي، **حقوق الإنسان**، دار توبيقال، دار البيضاء ٢٠٠٤م.
- (٢٦) هانت، لين، **نشأة حقوق الإنسان**، ترجمة: فائقة جرجس حنا، مؤسسة الهداوي، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ٩٩.
- (٢٧) هوبز، توماس، **اللفيathan**، ترجمة: ديانا حرب وبشرى صعب، الفارابي، بيروت، ٢٠١١م، ص ١٤٠-١٤٢.
- (٢٨) كولر، **الفلسفات الأسيوية**، ترجمة: نصير فليح، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١٢م، ص ٤٥٠.
- (٢٩) أنجيل، بوذا، **ترجمة: عيسى ميخائيل سابا**، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥٣م، ص ١٥٠-١٥٢.
- (٣٠) الكندي، يعقوب بن إسحاق، **رسائل الكندي الفلسفية**، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٠م، ص ١٦٦.
- (٣١) ابن سينا، **الإشارات والتنبيهات**، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨م، ص ٨١٠.
- (٣٢) أمل بنت عبد الله آل عبد السلام وآخرون، **الخير في القرآن الكريم: دراسة موضوعية**، رسالة جامعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ٢٠١٢م، ص ٢.
- (٣٣) الرازي، أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة العربية**، ج ٢، ص ٢٣٢.
- (٣٤) أمل بنت عبد الله آل عبد السلام وآخرون، **الخير في القرآن الكريم: دراسة موضوعية**، رسالة جامعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ٢٠١٢م، ص ٢.
- (٣٥) الرازي، أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة العربية**، ج ١، ص ٣٨٥.
- (٣٦) الفيروزآبادي، ج ٢، ص ٥٧٢.
- (٣٧) ابن منظور، ج ٣، ص ٦٨٧.
- (٣٨) أبو البقاء، الكفوي، **الكلديات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٤٢٣.
- (٣٩) سد جويك، **المجمل في تاريخ الأخلاق**، ترجمة: توفيق الطويل، دار نشر الثقافة، الإسكندرية، ١٩٤٩م، ص ٧٠.
- (٤٠) ابن منظور، المجلد ٣، باب الخاء، ص ٢٦١.
- (٤١) الزبيدي، **تاج العروس**، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ١٩٧٠م، ٣٥/٣٥.
- (٤٢) جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٤م، ١/٥٤٩.
- (٤٣) بوئشيبوس، **عزاء الفلسفة**، ترجمة: د. عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٦٧، ١٦٨.
- (٤٤) بوئشيبوس، **عزاء الفلسفة**، ترجمة: د. عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٩٦-١٩٨.
- (45) Perry, R.B. *General Theory of Value*, Cambridge, 1950.
- (٤٦) لويس دكنسون، **فلسفة الخير**، ترجمة: رمزي حلیم، مكتبة الأنجلو المصرية.
- (٤٧) **الموسوعة الفلسفية العربية**، إشراف: معن زيادة، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦م.
- (٤٨) أميرة حلمي مطر، **الفلسفة عند اليونان**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م.
- (٤٩) توفيق الطويل، ص ٤٦-٤٧.
- (٥٠) أفلاطون، **محاورة مينون**، ص ٩٣.
- (٥١) أرسطو، **علم الأخلاق إلى نيقوماخوس**، ترجمة: أحمد لطفي السيد، دار صادر، ١٩٢٤م، ص ١٦٧-١٦٨.
- (52) Jeffrey Fish and Kirk Sanders, *Epicurus*, Cambridge Uni. Press, 2011. P31
- (٥٣) توفيق الطويل، **فلسفة الأخلاق**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٢٠.

- (٥٤) عثمان أمين، ديكارت مبادئ الفلسفة، دار الثقافة للنشر، ص ٢٦٦.
- (٥٥) ابن منظور، ص ٩٨.
- (٥٦) عبد الباقي، محمد فؤاد، معجم غريب القرآن بيروت، دار المعرفة، ص ٤٧.
- (٥٧) الزمخشري، جاد الله محمود، اساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٦٧.
- (٥٨) الزمخشري، ص ١٦٧.
- (٥٩) كريمة حجازي، مجلة التراث، جامعة الجلفة، عدد ٢٤، ٢٠١٧. عثمان أمين، ديكارت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ١٦٦.
- (٦٠) الغرافي، مصطفى، البلاغة والأيدولوجيا، دار كنوز المعرفة العلمية، ٢٠١٥م، ص ١٧٣.
- (٦١) أرسطو، الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م، ص ٢٩.
- (٦٢) الشريف الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٠٤.
- (٦٣) روث فوداك وميشيل ماير، مناهج التحلل النقدي للخطاب، ترجمة: عماد عبد اللطيف وآخرين، المركز العربي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤م، ص ٦٢-٦٣.
- (٦٤) عزمي طه عبد القادر، ليتفقوا في الدين، منشورات وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠١٧م، ص ٢١٠.
- (٦٥) حسن حنفي، دراسات إسلامية، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٤٧-٤٩.
- (٦٦) عزمي طه السيد أحمد، حقيقة العالم عند فيلسوف العرب وفلاسفة اليونان، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٥م.
- (٦٧) عزمي طه عبد القادر، ليتفقوا في الدين، منشورات وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠١٧م، ص ٢١٠-٢١١.
- (٦٨) حسن، بزابينية، النخبة التونسية ومعركة الخلافة، عالم الفكر، العدد ١٧٧، الكويت، ٢٠١٩م.
- (٦٩) عزمي طه عبد القادر، ليتفقوا في الدين، منشورات وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠١٧م، ص ٤٣-٤٥.
- (٧٠) أبو الأعلى المودودي، مفاهيم إسلامية، دار القلم، الكويت، ١٩٧٤م.
- (٧١) بثينة الجلاصي، النص والتأويل في الخطاب الأصولي، رؤية للنشر، القاهرة، ٢٠١٤م، ص ٨-١٠.
- (٧٢) أبو حامد الغزالي، قانون التأويل، ضمن مجموعة رسائله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٢٧.
- (٧٣) سيد قطب، ج ١، ص ٣٨.
- (٧٤) قطب، ج ٤، ص ٢٢١٥.
- (٧٥) قطب، ج ٣، ص ٥٢.
- (٧٦) زياد خليل الدغامين، دعوى النسخ في القرآن الكريم، في ضوء واقعية الخطاب القرآني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، الأردن، ٢٠٠٩م، ص ٩٧.
- (٧٧) البقاعي، برهان الدين إبراهيم (ت ٤٨٠م)، نظم الدرر في تناسب الأسماء والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٣٧٨-٣٨١.
- (٧٨) الطبري، محمد بن جرير (٨٣٩-٩٢٣م) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المجلد الرابع، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠١٣م، ص ٢٢٥.
- (٧٩) قطب، مجلده، ص ٣٥٠-٣٥٦.
- (٨٠) السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر المشهور باسم جلال الدين السيوطي، (١٤٤٥م-١٥٠٥م)، تفسير الجلالين، مكتبة الصفا، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٤٢٨.

في فلسفة جدلية الحق والخير

- (٨١) الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م، ج ٥، ص ١٧٤-١٧٥.
- (٨٢) علي أبو زريق، معجزة أسماء السورة القرآنية، مكتبة وهبه، القاهرة، ٢٠١٧م، ص ٥٨٣.
- (٨٣) إسلام ويب نت، رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء.
- (٨٤) ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، ص ٣١٠.
- (٨٥) عزمي طه عبد القادر، ليتفقوا في الدين، منشورات وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ٢٠١٧م، ص ٢٠٢.
- (٨٦) علي أبو زريق، ص ١٣٠.
- (٨٧) الغزالي، محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ)، المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق: محمد مصطفى أبو العلا، مكتبة الجندي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٧.
- (٨٨) عبد الرزاق الوزكيتي، مفهوم الحق في القرآن الكريم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م، ص ٤٢.
- (٨٩) أمل بنت عبد الله آل عبد السلام وآخرين، الخير في القرآن الكريم، دراسة موضوعية، رسالة جامعية، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، ٢٠١٢م، ص ٢.